تصور الكون ومنزلة الإنسان في الموروث الأنطولوجي الغربي وتكريس مبدأ «المركزية البشرية»

The vision of the universe and the Human value in Western ontology Towards "anthropocentrism"

د. عبد الناصر قاسمي *

جامعة الوادي – الجزائر

abdenacergasmi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/09/04 تاريخ القبول 2023/11/12 تاريخ النشر 2023/12/31

ملخص:

يعالج هذا المقال موضوع التصور الغربي للوجود والبحث في أصل الكون والمكانة التي اكتسبها الإنسان على مر العصور، وذلك في إطار الهاجس الأنطولوجي الذي شغل الفلسفة والفلاسفة على مر العصور. ومن نتائج هذا الجدال أرساء هيمنة الإنسان على الطبيعة وتسخيرها لصالحه، وذلك في إطار مركزية بشرية تشكل تهديدا للبيئة ومصير الإنسان. من هنا ظهرت فلسفة البيئة، بهدف إعادة النظر في تصورات الإنسان، وممارساته الأخلاقية.

الكلمات المفتاحية: تصور الوجود ـ الأنطولوجيا ـ الفلسفة اليونانية ـ الفلسفة الغربية الحديثة ـ المركزية البشرية.

Abstract:

This article deals with the issue of the Western perception of existence, and the origin of the universe, and the human value witch has acquired

---

* المؤلف المراسل

throughout the ages, and the ontological obsession that has occupied philosophy and philosophers throughout the ages. One of the results of this debate is the establishment of human dominance over nature and its exploitation to his advantage, also the idea of anthropocentrism to the environment and human destiny. From here, environmental philosophy emerged, with the aim of change human ethical practices.
key words: Concept of existence - ontology - Greek philosophy - anthropocentrism - western philosophy.

مقدّمة:

إن البحث في مجالات الكون والإنسان والوجود بشكل عام، هو من المباحث الرئيسية الأولى التي لفتت انتباه الفلاسفة وشغلت تأملاتهم منذ أقدم العصور، فقد اقترن النظر في ظواهر الكون وأصل الوجود بميلاد الفلسفة، التي قطعت دابر الرؤى الدينية والتصورات الأسطورية التي سيطرت من قبل على الثقافات الشرقية والشروع مع الحضارة اليونانية في اعتبار الموجودات والبحث في خفايا الكون وأصل الوجود على أسس جديدة.

لقد تمكن اليونانيون بفضل براعتهم من استيعاب التراث الشرقي واعادة تشكيل مخرجات الحضارة المصرية والهندية والصينية وغيرها من الحضارات التي سبقتها، ويشهد على ذلك مناخ التنافس بين الفلاسفة الطبيعيين في القرن السادس قبل الميلاد، لبلورة رؤى وتصورات جديدة عن العالم والكون والإنسان، على أسس جديدة بعيدة عن التفسيرات الدينية والأسطورية. لقد فتحت الفلسفة اليونانية نطاق البحث الموضوعي في مسائل الكون لتشمل كل ما يهم الإنسان كالسياسة والاخلاق والجمال وغيرها، فالنظر في قضايا الكون والوجود لا يمكنها أن تنفصل عن الإنسان ذاته، فكل موقف أو نظرية تجاه الكون أو الطبيعة، تحدد بالضرورة الموقف من الإنسان ودوره بل ومصيره في هذا العالم.

لعلنا لا نذيع سرا في التذكير بفشل الحداثة الغربية في بلورة علاقات متوازنة بين مطالب الإنسان من جهة ومطالب أو حقوق الطبيعة من جهة أخرى، إذ تتزايد في الآونة الأخيرة، دعوات جدية باستحداث صيغ جديدة تحدد معالم الإنسان المعاصر في علاقته بالطبيعة على أسس فكرية وأخلاقية مغايرة، لما تم توارثه منذ اليونان إلى يومنا هذا، خاصة مع تفاقم المخاطر التي تحدق بالبيئة، بسبب تجاهل مطالب الطبيعة وكذا إطلاق العنان لرغبات الإنسان وأنانيته غير المحدودة. ومن هذا المنطلق، لم يعد خافيا على أحد، الاتهامات الجدية للفلسفة الغربية، ضمن إحداثياتها الزمانية والمكانية وسياقاتها المعرفية والتاريخية، تكريسها العميق لمبدأ "المركزية البشرية"، الذي يضاف إلى غيرها من المركزيات الأخرى، التي وقعت فيها الحداثة الغربية.

ومن هذا المنطلق، سنسعى في هذه الورقة إلى محاولة فهم أهم المسارات المعرفية وإلى تتبع السياقات التاريخية للفلسفة اليونانية التي انبثقت ــ في لحظتها الأولى ــ من سؤال الوجود، وهو السؤال الذي شكل فاتحة عهد جديد أدى إلى قيام الفلسفة في بدايات القرن السادس قبل الميلاد. فقد هيمن مبحث الوجود والبحث عن أصل الكون ومنزلة الإنسان، على طول الفلسفة اليونانية امتدادا إلى العصر الحديث. وعليه، فقد اقترن تأسيس الفلسفة بهواجس الإنسان الأنطولوجية، وبرغبته المستمرة في السيطرة على الطبيعة والعمل على إخضاعها لتلبية رغبات الإنسان، خاصة مع تطور العلوم والتطبيقات التكنولوجية.

لقد فتح الإنسان عينيه ــ في العقود الأخيرة من القرن العشرين ــ على حجم الكوارث البيئية والانتهاكات المستمرة للطبيعة، وعلى التهديدات الجدية التي يتعرض لها النظام الإيكولوجي لكوكب الأرض، وما يترتب عن ذلك من تهديد للإنسان ذاته، ولسائر الكائنات الحية والموارد الحيوية الضرورية لاستمرار الحياة على هذا الكوكب.

ويرجع أنصار البيئة ذلك إلى هيمنة الإنسان على الطبيعة وإلى ما بات يعرف بمبدأ "المركزية البشرية"، الذي نتج بدوره عن الموروث المعرفي في المجال الأنطولوجي الغربي.

وسنحاول في هذا المسعى، الكشف عن تجليات تصور الفلاسفة وبخاصة الطبيعيين للكون، واستنتاج منزلة الإنسان في بعض نماذج الفلسفة اليونانية، وكذلك عند بعض أعلام الفلسفة الحديثة لاسيما بيكون وديكارت، نظراً لتأثيرهما العميق في جميع أطوار الفلسفة الغربية. فإلى أي مدى يمكن أن يكون هذا الإرث المعرفي حول الوجود والإنسان، قد كرس حقيقة هيمنة الإنسان ومركزيته في هذا العالم ؟ وهل بالإمكان تدارك تصورنا للكون وإعادة تقييم مرتبة الإنسان ؟ وبتعبير ربما أدق، هل بالإمكان الانتقال في هذا الشأن، من الحالة المعرفية الإبستيمولوجية إلى الحالة الأخلاقية أو الإيتيقية ؟

أولا: الأنطولوجيا الغربية وجدلية الإنسان والكون:

1- الأنطولوجيا Ontology

تعد مسألة الأنطولوجيا أو الوجود من بين أقدم المسائل التي طرحت في الفكر والفلسفة وفي غيرها من الميادين، بل من القضايا التي لا زالت تطرح وبشكل واسع في مختلف الفلسفات المعاصرة بشكل متجدد، على اعتبار أن الإنسان جزء من هذا الكون، ولا يمكنه أن يكف عن طرح أسئلته الوجودية الضرورية، التي تهدف إلى تمكين الإنسان في هذا الكون ومن تحديد هويته وماهيته وكذا موقعه بالنسبة لسائر الموجودات. فمن الطبيعي أن نكون هواجس الإنسان وانشغالاته الأولى، مرتبطة بتلك الأسئلة التي تتمحور حول أصل هذا الكون، بداياته ومآلاته ومصائره.

والأنطولوجيا Ontology إذا ما تجاوزنا دلالاتها اللغوية، فهي تعني علم الوجود، وهو قسم من أقسام الفلسفة، يبحث في الوجود بإطلاق مجرداً عن كل تعيين أو تحديد.[1] وهي أيضا العلم الذي يكون موضوعه الوجود المحض، أو الموجود المشخص وماهيته، أو الموجود من حيث هو موجود أو الموجود في ذاته، مستقلاً عن أحواله وظواهره.[2] ويعرف

أندريه لالاند في موسوعته الفلسفية الأنطولوجيا، بأنها « باب من أبواب الفلسفة، ينظر في الكون عقلا من جهة كونه عقلاً ».[3]

والجدير بالذكر، أن التسمية "أنطولوجيا" هي وحدها الجديدة، أما بالنسبة لهذا المبحث أو العلم ذاته، فقد كان موجودا منذ فلاسفة اليونان الأوائل وبخاصة أرسطو، الذي كان يطلق عليه اسم الفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا، والتي عرفها بـ « علم الوجود بما هو موجود »، على أن الكلمة اللاتينية Ontologia قد ظهرت عام 1606م، وذلك في عمل أوغروس سكولاستيشا، وكذلك عام 1613م في المعجم الفلسفي لـ رودولف جوكل، أما ظهوره الأول باللغة الإنجليزية Ontology، فقد كان في معجم أكسفورد الإنجليزي عام 1722م، والذي عرفها « بأنها تفسير الوجود المجرد ».

2- الأنطولوجيا الغربية وجدلية الإنسان والكون:

إن مصطلح الأنطولوجيا هو إذن البحث في الوجود المطلق، أو الوجود العام المتحرر من كل تحديد أو تعيين، أي بمجموعة المفاهيم المندرجة تحت هذا اللفظ، والتي أطلق عليها أرسطو اسم « الميتافيزيقا العامة ». والوجود من هذا المنطلق، هو من المباحث المهمة في الدرس الفلسفي، بل إنه يشكل المحور الأساسي العام المقرر أو بعبارة أرسطو الشهيرة « البحث في الوجود بما هو موجود».[4]

إذا كان مبحث الطبيعة والكون هو من المباحث الرئيسية الأولى التي لفتت انتباه الفلاسفة، والتي اقترن النظر في ظواهرها بميلاد الفلسفة، فإن دراسة الكون لا تنفصل وجوديًا وجدليا عن دراسة الإنسان أو الذات نفسها التي تشكل أحد نتاجات الوجود الأصيلة. ولعل دراسة الكون والكشف عن غوامضه، هي إحدى المفاتيح لفهم الإنسان، وهذا ما أراه معبرا عن المضمون العميق، لجملة سقراط بأن يعرف الإنسان نفسه.

إن المضامين الغنية، التي توصلت إليها الدراسات الفلسفية اليونانية، ومن قبلها الميثولوجيات الدينية والأساطير الشرقية لحل لغز الوجود الكوني، شكلت بنفس الوقت

الدخول في عالم الذات العميق. ومن هذا المنطلق، فإن مبحث الأنطولوجيا الذي شغل الفلسفة في جميع أطوارها، قد انشغل بصورة جدلية بدراسة الإنسان باعتباره كائنا فاعلا في هذا الوجود، بل إن الوجود نفسه ــ كما يدعي هيدجر ــ يتحدد من خلال الإنسان وبمكانته في العالم والكون، إذ يستكشف هذا المبحث الطبيعة البشرية وماهيتها، والتحولات التي تمر بها عبر التاريخ والثقافات المختلفة.

إن السؤال عن الوجود لا ينفصل في تفكير الفلاسفة عن السؤال عن الحقيقة؛ فمن خلال السؤال الأنطولوجي يسعى الفلاسفة إلى فهم حقيقة الإنسان وتفسير وجوده ودوره في الحياة والعالم، كما يتناول أيضًا، التفاعل بين الإنسان والمجتمع والتأثيرات المتبادلة بينهما وإن اختلف هذا الانشغال باختلاف الزمان والمكان. « إن المعرفة الصريحة ضمن مهمة كهذه إنما تأخذ نفسها تحديداً من حيث هي معرفة بالعالم، بوصفها العلاقة النموذجية التي للنفس بالعالم [...] إنها من ناحية أنطيقية بوصفها علاقة بين كائن (العالم) وكائن (النفس) ».[5] وباختصار، فإن مبحث الأنطولوجيا في الفلسفة يعبر يشكل أو بآخر عن العلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة، ويسعى لفهم الإنسان ومكانته ودوره في العالم ويدرس مختلف جوانب الطبيعة البشرية وتفاعلها مع البيئة والثقافة والتاريخ.

ثانيا: الفلسفة اليونانية وانطولوجيا البحث في أصل الوجود:

لقد كانت التغيرات الحاصلة في الطبيعة لافتة لفضول وعقول الفلاسفة الإغريق؛ لذا كان تساءلهم طبيعيا إزاء تلك التغيرات المرئية الحاصلة في الكون، فقد كانت رغبتهم ملحة في فهم أحداثها وتفسيرها، محاولين صياغة بعض القوانين الطبيعية المعقولة، دون التعويل على الأساطير التي يعرفونها؛ ولا على الآلهة أو القوى الخارقة التي تعودوا تحميلها المسؤولة عن نمو النباتات أو حدوث الكوارث الطبيعية. من هنا كانت انطلاقة الفلسفة اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد؛ عندما حاول الناس إيجاد أجوبة علمية عن

السؤال: ما هو تفسير العالم؟ حيث لم يكن في مقدور الشعر أو الأساطير الشائعة آنذاك، ولا المعتقدات الدينية المسيطرة تقديم تفسيرات طبيعية مقنعة إزاء تلك التساؤلات.

وقبل التفصيل في بعض مسالك الفلسفة اليونانية، ينبغي الإشارة إلى أن هناك تصنيفات وتقسيمات عديدة لهذه الفلسفة، يقوم أغلبها على نحو طبيعي إلى ثلاث مراحل أو فترات رئيسية؛ تسمى الفترة الأولى بفلسفة ما قبل سقراط، ويُطلَق عليها مرحلة الفلاسفة الطبيعيين. الفترة الثانية تبدأ من السوفسطائيين إلى أرسطو، وهي فترة النضج بالنسبة للفلسفة اليونانية، لكونها شملت أيضا كلا من سقراط وأفلاطون. وأخيراً فلسفة ما بعد أرسطو، التي شكلت سقوط وانهيار الفكر القومي.[6]

كما تجدر الإشارة أيضا، إلى أن بحثنا لمسألة الرؤية اليونانية إلى العالم، يهدف إلى الكشف عن الأصول البعيدة لتشكّلات ثقافة الإنسان الغربي الحديث والمعاصر، والوقوف على العوامل التي أثرت على رؤى وتوجهات المذاهب الفلسفية وتيارات الفكر الغربي، هذه الأخيرة ظلت تفخر بانتمائها وامتدادها للحضارة الهلنستية، ويظهر ذلك من خلال انسجامها مع ما أنتجته النصوص اليونانية الكلاسيكية من قيم، بخاصة في باب الأنطولوجيا والأخلاق وغيرها. يقول غادامير « إن الموضوعة هي بداية الفلسفة الإغريقية التي تمثل بداية الثقافة الغربية أيضاً. وهذه ليست مجرد موضوعة اهتمام تاريخي. إنها موضوعة تقارب المشكلات الراهنة في ثقافتنا الخاصة التي لم تجد نفسها بمواجهة اللايقين والافتقار إلى الثقة بالذات ».[7]

1– ما قبل سقراط الطبيعة محورا للفكر الفلسفي.

يجمع أغلب المؤرخين على أن ظهور الفلسفة اليونانية في القرن السادس قبل ميلاد، كان بمثابة ولادة تاريخ جديد، بدأ مع الفلاسفة الطبيعيين بثورة عقلية استطاعت أن تمنح النظريات الكونية منحى جديدا على شواطئ ومستعمرات آسيا الصغرى. فقد قطعت

هذه الأخيرة مع الرؤى الدينية والأسطورية، وفسح المجال أمام النظريات العقلية والتفسيرات الطبيعية البحتة. لقد تمكن فلاسفة اليونان الأوائل، من القطع منهجياً مع أساليب الفكر الشرقي وآلياته القديمة، واستبدالها بوسائل بشرية أو بالأحرى طبيعية، يمكن بواسطتها التحقق من صحة تلك النظريات، بالرجوع إلى الحس والمشاهدة وبالاعتماد على الاستقراء والاستدلال العقليين.

والفلسفة اليونانية بمعناها الأخص، والتي امتدت من أواسط القرن السادس إلى منتصف القرن الخامس ق.م، في ملطية Miletus عاصمة أيونيا Ionia، الواقعة في آسيا الصغرى على بحر إيجه Mer Égée ، قد شكلت بحق مرحلة فارقة ولحظة حاسمة في التأسيس للفلسفة بالمعنى المتعارف عليه اليوم. وقد سميت مرحلتها الأولى بتسميات عديدة، كالفلسفة الأيونية أو المالطية أو الطبيعية الكوزمولوجية، وكلها تسميات طبيعية. وقد قاد هذه المرحلة ثلاثة أعلام وهم على التوالي: طاليس، وأَنكسمندر وأنكسمينس.

لقد تمحورت تأملات هؤلاء وغيرهم في هذه الفترة حول الكون Cosmos، وبالتالي فقد كانت فلسفاتهم طبيعية بامتياز، لتناولها مسائل الطبيعة والكون بالدراسة والتفصيل، بعيدا عن استمداد العون من الشعراء أو الآلهة والأساطير، مندفعة بجرأة إلى محاولة فهم الذات وعلاقتها بالوجود، من داخل الوجود ذاته. فمن الطبيعي إذن، أن يتجه الفكر الإنساني ــ المنشغل بالبحث عن هويته ــ أول ما يتجه، نحو الخارج بالبحث في طبيعة الأشياء وفي أصل الوجود من حوله. لقد استوقف الإنسان ذلك التغير الذي يحصل في الطبيعة سواء أكان عرضيًّا؛ مثل انقلاب الشيء من حال إلى حال، أو جوهريًّا؛ مثل تحول الشيء إلى شيء آخر، كتحول الغذاء في الجسم الحي. إذن فقد فكر الإنسان أول ما فكر، في "المادة" التي يتألف منها الوجود، وهذا أمر طبيعي ومعقول.[8]

أ- طاليس Thales

طاليس (624 – 550) ق.م تقريبًا، هو بإجماع المؤرخين أول فيلسوف يكون قد استخدم معايير وآليات التفكير بالمعنى المتعارف عليه اليوم عن الفلسفة، فقد وضع المسألة الطبيعية والسؤال عن أصل وماهية الكون وضعاً نظريًّا، بعد أن كان الأمر في عهدة الشعراء واللاهوتيين، فشق للفلسفة طريقها، الذي سار عليه بقية الفلاسفة من بعده. وتتلخص نظرية طاليس في هذه المسألة قوله: أن الماء هو قوام الموجودات بأسرها، فلا فرق في ذلك بين هذا الإنسان وتلك الشجرة وذلك الحجر إلا في كمية الماء الذي يتركب منها هذا الشيء أو ذاك، فهو أول من أدرك أن هذه الكائنات المتباينة لا بد أن تكون قد صدرت عن أصل واحد، فالماء هو أصل الوجود، وأنه المادة الأولى والجوهر الأوحد، الذي تتكون منه الأشياء كلها.[9]

وتتألف نظرية طاليس أو فلسفته ــ إذا جاز تسميتها فلسفة ــ من قضيتين رئيسيتين: أولها أن أصل الأشياء جميعا هو الماء وكل شيء يعود إلى الماء، وثانيها أن الأرض قرص مسطح مستو، يطفو على سطح الماء. أما عن السبب الذي دعا إلى منح طاليس لقب «أب فلسفة»، ليس على أساس هذه الفكرة، التي تبدو فجة وغير متطورة، بل لكونه أول من حاول شرح الكون على مبادئ طبيعية وعلمية دون العودة للآلهة والأساطير. زيادة على ذلك، أن طاليس هو من حدد مسار كل الفلسفة السابقة على سقراط، والمتمثلة في البحث عن المبدأ الواحد الذي يفسر الكثرة والتنوع في العالم.[10]

ب– أنكسماندر Anaxemander

الفيلسوف الموالي في المدرسة الأيونية هو أنكسمندر (611 ــ 547) ق.م تقريبا، الذي كان في أغلب الظن تلميذا لطاليس وخليفته في ملطية. سطع نجمه بسبب معرفته بالفلك والجغرافيا، ويقال أنه أول من رسم خريطة، وبأنه أول يوناني يكتب بحثا فلسفيا، على الرغم من فقدان ذلك البحث لسوء الحظ.

وافق أنكسمنادر أستاذه طاليس على أن المبدأ الأقصى للأشياء هو مبدأ مادي، لكنه لم يجعله الماء ولا أي نوع آخر خاص من أنواع المادة، كالهواء أو النار أو التراب، بل هو بالأحرى مادة بلا تشكيل ولا تحديد وبلا ملامح معينة. فالمواد ـ كما هو معلوم ـ تتمايز عن بعضها البعض بصفاتها وخصائصها، فالحديد مثلا يختلف عن الهواء لأن له خصائص وصفات تميزه عن الهواء وعن غيره من أنواع المادة. أما المادة الأولى عند أنكسيماندر فهي بلا خصائص وبلا صفات أو هي بالأحرى مادة هلامية.

ولما كانت مادة أنكسيماندر غير متعينة من ناحية الكيف، وغير محددة كذلك من ناحية الكم، فقد اعتقد أن هذه المادة تمتد إلى مالا نهاية في المكان، لأنه لو كان للمادة قدر محدد لأستنفذت تلك المادة منذ فترة طويلة في خلق العوالم المتعددة، ومن ثم يسمي مادته هذه بـ «اللامتعينة». ولقد أفاض أنكسيماندر في شرح كيفيات تشكل هذه العوالم، وعن أصل الكائنات الحية وتطورها وكذا تأقلمها مع بيئاتها. وقد أظهر أنكسيماندر تقدما ملحوظا، يتجاوز ما جاء به أستاذه طاليس.[11]

جـ– أنكسمينس Anaximenes

وهو تلميذ أنكسمنادر ومواطنه، عاش بين سنتي (558 ق.م و524) ق.م تقريبا. لقد اتفق مع طاليس وأنكسماندر على أن المبدأ الأول للكون هو جوهر مادي، كما اتفق مع طاليس على أن هذه المادة محددة ومعينة، مخالفا بذلك أستاذه أنكسيماندر، نافيا أن تكون هذه المادة لا متعينة أو غير محددة. لقد أعلن أنكسمينس أن هذه المادة المكونة للكون هي الهواء، فهو المبدأ الذي تصدر عنه الأشياء جميعا، بما في ذلك الآلهة. وهذا الهواء ـــ مثل مادة أنكسماندر ـــ غير محدود في المكان، والهواء بطبيعته في حالة حركة دائمة، وحركته كامنة فيه، وحركة الهواء وديناميكيته هي التي تتسبب في تطور الكون، لأنه لو كان ساكنا لما حدث تغير ما، فاختلاف الموجودات وكثرتها يكون بفعل التكاثف والتخلخل.

وبمجمل القول، أن أنكسمينس كان له تأثير واضح على الفلاسفة الذين جاءوا من بعده، وبخاصة الذريين منهم. كما كان مذهبه أيضا نتيجة حتمية وتطورا طبيعيا لآراء المدرسة الملطية أو الأيونية، فهو بذلك آخر ممثل لهذه المدرسة، والمعبر الحقيقي عن نظرياتها في تفسير الكون، إذ أن فكرة العناصر الطبيعية الأربعة: الماء ـ الهواء ـ النار ـ والتراب، قد انتشرت في عهده حتى أصبحت الفكرة الأكثر شيوعا، في تفسير الظواهر الطبيعية في الوجود.[12]

وبوفاة أنكسمينس وسقوط ملطية سنة 494 ق.م، أخذت الفلسفة في التحول التدريجي، أفقيا وعموديا بخاصة مع ظهور المدرسة الفيثاغورية ونشأة العلم الرياضي، ثم المدرسة الايلية في جنوب إيطاليا، حيث كان كزينوفان وبارمنيدس وزينون ممثليها الرئيسيين. يأتي بعد ذلك المذهب الذري L'atomisme أو الذريون، من أشهر أعلامها لوقيبوس Leucippe وديموقريطس Démocrite ولامبيدوكليس وغيرهم. جميعهم واصلوا انشغالهم ــ بشكل أو بآخر ــ بموضوع بالطبيعة، وبالبحث في مشكلة الأصل ومبدأ الوجود. فماذا عن مرحلة سقراط، التي تبدأ بالنسبة لكثير من المؤرخين بالسوفسطائيين؟

2- السوفسطائيون وسقراط: الإنسان محور الفكر الفلسفي

بحلول القرن الخامس قبل الميلاد، تكون الفلسفة اليونانية قد شهدت تطورا أفقيا وعموديا، على أن أبرز معالم هذا التطور تمثل في ظهور السوفسطائيين وسقراط، فقد تمكن هؤلاء من نقل محور الاهتمام الفكري والفلسفي من فضاء الكون والعالم الخارجي إلى مجال الإنسان. وعليه، فقد تحول مسار البحث الفلسفي على يد هؤلاء تحولا جذريا نحو دراسة الإنسان، فعلى الرغم من أنهم لم يكتفوا بعد من تناولهم لموضوع الطبيعة، إلا أن هموم الأثينيين وانشغالاتهم الجديدة، دفعتهم للبحث عن الحلول العملية، ذات الصلة

بمشكلات الإنسان اليومية، في مجالات التربية والأخلاق والسياسة والاقتصاد، وغيرها من القضايا التي استقطبت اهتمام المواطن الجديد.

أما قضايا الكون ومسائل الطبيعة وأصل الوجود، التي شغلت الفلسفة اليونانية الأولى لما يزيد عن قرنين من الزمن، فقد أضحت بالنسبة إليهم مسألة ثانوية. وعلى الرغم اختلاف الباحثين والمؤرخين في تفسيرهم لطبيعة وأسباب هذا التحول، الذي نقل اهتمامات الفلسفة من عالم الكون إلى عالم الإنسان، فإن أغلب المواقف تؤكد على أهمية التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبخاصة ظهور الديمقراطية في أثينا.

وإلى جانب سقراط الغني عن التعريف، فقد سجل السوفسطائيون حضورهم بقوة في المشهد الأثيني، وفي المجتمع اليوناني عامة، في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد. إنهم طائفة من الفلاسفة البارعين، الذين كان أغلبهم من المعلمين الأحرار، الذين احترفوا تعليم الناس البلاغة وفنون الخطابة لقاء أجر مرتفع، ليس طلبا للمعرفة أو بحثا عن الحقيقة ذاتها، بل من أجل غايات ومنافع عملية، مستغلين في ذلك طموح الشباب الأثيني المتعطش آنذاك للمناصب العليا في الدولة، التي تشهد في ذلك الوقت تحولات عميقة. والجدير بالذكر أن السوفسطائية تعرضت لحملات تشويه كبيرة ولمعارضة شديدة، بخاصة من قبل سقراط ومن تلميذه أفلاطون.[13]

أ– بروتاغوراس Protagoras

يعد بروتاغوراس أول السوفسطائيين وأهم شخصية سوفسطائية، عاش في النصف الأخير من القرن الخامس فهو مواليد مدينة أبديرا (481–411) ق.م، لكنه طاف ببلاد اليونان وزار أثينا مرات عديدة، واستطاع أن يجمع ثروة طائلة من تعليم الفلسفة، ولبروتاغوراس مؤلفات عديدة فقدت جميعها. أما أشهر نظريات بروتاغوراس فهي نظريته النسبية في السياسة والأخلاق، و نظريته في المعرفة وفي جميع الميادين تقريبا، والتي تعتبر أن

الإنسان مقياس كل شيء، فهو صاحب القول الشهير « الإنسان هو معيار كل الأشياء، معيار ما هو موجود، فيكون موجودا، ومعيار ما ليس بموجود، فلا يكون موجودا ».[14]

وتشكل العبارة السابقة، جوهر فكر بروتاغوراس الفلسفي ككل، فعلى الرغم من التفسيرات الكثيرة والتأويلات العديدة ــ لتلك العبارة ــ غير أن جميعها، يشير إلى خطورة ما طرحه هذا الأخير على بساط البحث الفلسفي، خاصة فيما يتعلق بعلاقة الذات بالموضوع، أو بالأحرى علاقة الإنسان بالطبيعة. وبروتاغوراس ينقل يعكس بذلك أو ينقل مشكلة المعرفة من الموضوع إلى الذات العارفة، فبعد أن كرس الفلاسفة الطبيعيون مركزية الطبيعة في جميع أبحاثهم، وإقرارهم بوجود عالم خارجي وموضوعي، فقد أصبح كل ما في الوجود، يتحدد ــ بالنسبة لبروتاغوراس ــ وفقا لمتطلبات الذات ومقتضياتها. إن الإنسان هو وحده معيار المعرفة ومعيار الوجود؛ فإن قال عن شيء أنه موجود، فهو موجود، وإن قال أنه غير موجود، فهو غير موجود.

ب- جورجياس Gorgias

عاش جورجياس بين سنتي (375-480) ق.م، وهو من مواطني مدينة ليونتيني Leonttini النشطاء بصقلية، التي تقع إلى الغرب من سراقوصة، قدم إلى أثينا سنة 427 ق.م يستنصرها باسم مدينته على أهل سراقوصة، فسلب عقول الأثينيين وأدهشهم ببلاغته، وقد مدحه أفلاطون الذي سمى محاورة جورجياس باسمه. من أشهر كتبه الفلسفية كتابه الموسوم «في الطبيعة أو اللاوجود».

إن المقتطفات أو الحجج الثلاث التي احتفظ بها سكستوس امبريقوس Sextus Empiricus من شأنها أن تلخص لنا أهم ما في فلسفة ومنطق جورجياس عن الوجود واللاوجود.

1- لايوجد شيء على الإطلاق

2- وحتى إذا وجد أي شيء فلا يمكن معرفته.

3- وحتى إذا عرف الشيء فلا يمكن إيصاله إلى الآخرين لأنها معرفة نسبية؛ كما أن وسيلة إيصال هذه المعرفة ليست مطلقة، إذ اللفظ الواحد يحتمل عدة معان.[15]

جـ- سقراط Socrates

يأتي سقراط الفيلسوف الأثيني الأشهر (470-399 ق.م) في مفترق مرحلتين من مراحل تطور الفكر اليوناني، فهو أول الفلاسفة اليونانيين الكبار، الأكثر شهرة وتأثيرا في التراث الفكري والفلسفي، مع أنه لم يكتب شيئا واحدا يذكر في الفلسفة، وأن أغلب ما وصلنا من فلسفته، كان عن طريق المحاورات التي دوّنها تلميذه أفلاطون. وأقل ما يقال عن سيرة سقراط ومسيرته الفلسفية، أنها الأكثر إثارة للجدل، ففي الوقت الذي بعتبره البعض علما من أعلام الفلسفة، فهذا نيتشة على سبيل المثال، لا يتوانى في إعلان مقته وكرهه لسقراط ولفلسفته، حيث اعتبره المسؤول عن جمود العقل، الذي ساد الفكر الأوروبي طوال العصور الوسطى.[16]

لقد نجح سقراط في التأسيس للنزعة النقدية، التي تطورت مع أسلوبه الجدلي ومنهجه القائم على التهكم والتوليد، وهو المنهج الذي تصدى به لفوضى السوفسطائيين. كما نجح سقراط في صرف الفلسفة عن البحث في مسائل الطبيعة، وتوجيهها نحو البحث في النفس أو الذات البشرية، متخذا من عبارة معبد دلفي الشهيرة «أعرف نفسك»، شعارا لعموم فلسفته. وعليه فقد تركزت فلسفة سقراط حول موضوعين رئيسيين؛ هما: الإنسان وأخلاق الإنسان. فمعرفة النفس عند سقراط، تعني معرفة خير الإنسان ولا شيئ غير الإنسان، وتحقيق الفضيلة لبلوغ السعادة القصوى، على أن خلاصة نظرية سقراط الأخلاقية تقول، أن «الفضيلة علم، والرذيلة جهل».

ثالثا: أفلاطون وأرسطوطاليس

قدم أفلاطون Platon (427-347) ق.م مذهبا فلسفيا مثاليا متكاملا، يصعب الإلمام بكافة تفصيلاته ونظرياته في هذه العجالة، فقد شملت تقريبا كل أقسام التأمل المعروفة في الفلسفة. لقد نظّر أفلاطون في المعرفة وفي السياسة والطبيعة والأخلاق والفن والتربية وفي غيرها من الميادين، غير أنه وسط هذا « الكم الهائل من الفكر الذي قال به أفلاطون في جميع أقسام التأمل، نجد أن الأطروحة المحورية للمذهب كله هي نظرية المثل».[17]

ويمكن فهم نظرية أفلاطون في الطبيعة وكذا تفسيره للعالم، من خلال نظريته المركزية في المثل. إن الأشياء في نظر أفلاطون، هي «نسخ» أو «محاكاة» للمثل. وعلى الرغم مما في هذا التفسير من أصالة وخصوبة، فقد جلب لأفلاطون عديد الانتقادات، حيث وصف بأنه أقرب للأسطورة منه إلى الواقع، وبأن مثاليته هي في نواح عديدة فجة ولا تطاق.[18] وعلى أية حال، فإن ما يؤمن به أفلاطون هو وجود النفس العالمية، وهي التي تدير السلوك العقلاني للأشياء وتفسر الحركة في الكون الخارجي، كما أن النفس الانسانية هي علة حركات الجسم البشري.[19]

أما أرسطوطاليس Aristote (384-322 ق.م)، فهو من بين أكثر الفلاسفة اليونانيين شهرة، وأكثرهم تأثيرا، ويجمع أغلب الدارسين على أن فلسفته، هي امتداد وتشذيب لفلسفة أستاذه أفلاطون. لقد خاض أرسطو في جميع المواضيع الكونية والطبيعية والأخلاقية والسياسية والإلهيات، وفي الخطابة والشعر وغيرها من المسائل العلمية والفلسفية. لقد أعتبر مؤسسا لعلمين على الأقل، لم يسبقه إليه أحد، وهما علم الحيوان والمنطق.

لا شك في أن أرسطو قد خطا بعلم الطبيعة ولواحقه، خطوات واسعة إلى الأمام. ولكي نفهم التصور الأرسطي العام للطبيعة، يجب علينا في البداية أن نستحضر في الأذهان، نظريته في العلل الأربعة: العلة الفاعلة والعلة المادية والعلة الصورية والعلة الغائية.

بهذه العلل الأربعة، يفسر أرسطو حركة العالم الكلية، وهي حركة تتوقف على جهد الصورة، في سعيها لتشكيل المادة، أو ما يسميه أرسطو بالهيولى.

فالعملية الكلية في العالم هي عملية انتقال من الهيولى (المادة) إلى الصورة، وهي بدورها حركة تتجه نحو تحديد غايات محددة، فلكل شيء في الطبيعة غايته ووظيفته، وليس هناك شيء بدون غرض. والطبيعة تبحث أو تسعى في كل موضوع لتحقيق أفضل الغايات الممكنة، وهذا ما يجعل فلسفة أرسطو في الطبيعة في جوهرها فلسفة غائية. وعلى الرغم من تبحر أرسطو في علم الأحياء وعلم الفلك وعلم الحيوان، إلا أن هذا الأخير ظل مشدودا نحو الغاية القصوى، وهي الإنسان.[20]

رابعا: فرنسيس بيكون ورينيه ديكارت:

إن الاكتشافات الباهرة التي حدثت في ميادين الفيزياء والرياضيات وعلم الفلك، بعد الفتوحات العلمية التي تمت على يد كوبرنيك وكبلر وغاليليو ونيوتن منذ بدايات القرن السابع عشر، هي امتداد طبيعي لما بدأه الفلاسفة اليونانيين فيما يتعلق بتصوراتهم للطبيعة ومكونات العالم والفلك وغيرها. لقد ألهمت تلك الاكتشافات أجيالا جديدة من رواد الحداثة الغربية، نذكر على سبيل المثال: فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت. فقد قادا كلاهما ثورة على الفلسفة الأرسطية التقليدية، معلنين عن فتح علمي وفلسفي جديد: التجريبية من جهة بيكون في مقابل العقلانية من جهة أخرى، جهة ديكارت.

1- بيكون Francis Bacon

فرانسيس بيكون (1561-1626م) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، يكاد يجمع المؤرخون على أنه لا يُدانيه إلا أرسطو في شمول النظر واتّساع الفكر، على الرغم من أن بيكون يعد من الرواد الأوائل الذين انتبهوا إلى عقم المنطق الأرسطي، وإلى عدم جدوى أسلوبه في الاعتماد على القياس. كان ظهور بيكون بمثابة إعلان عن ميلاد حقبة جديدة في تاريخ العلم والفلسفة، لإيمانه العميق بأن تجديد العقل جديد، يتطلّب منطقا

جديدا، يضع أصول البحث والاستكشاف على أسس وقواعد جديدة. لقد تمكن بيكون بالفعل، عن طريق «الأورغانون الجديد» من ردم أساليب التفكير الأرسطوطاليسية التقليدية.

ويجادل بيكون بإمكانية المعرفة العلمية، المبنية فقط على الاستقراء والمراقبة الدقيقة للأحداث في الطبيعة، مؤكداً على نجاعة هذا النهج في الرصد المتأني والتمحيص الدقيق للظواهر الطبيعية، إنه المنهج الوحيد القادر في رأيه على استنطاق الطبيعة واستنباط قوانينها العامة. إن المنهج التجريبي القائم على الاستقراء، من شأنه « أن يجلب للإنسان مكاسب لا تقدر بثمن، وأنه يمكنه من إعادة فرض سيادته على الطبيعة، تلك السيادة التي كان قد أضاعها مع سقوط آدم ».[21]

والجدير بالذكر، أنه إذا كان سقراط قد ربط المعرفة بالفضيلة، فإن بيكون على العكس من ذلك، قد ساوى المعرفة بالسلطة والنفوذ والقوة، معتبرا بأن الفائدة والمصلحة العملية التي يجنيها الإنسان، هي المعيار الفعلي والحقيقي لشرعية أي معرفة. وهكذا فقد اكتسب العلم مع بيكون بعدا جديدا، هو في نفس الوقت غائيا نفعيا وطوباويا أيضا، إذ لم يخلق الإنسان لفهم الطبيعة وتفسيرها فحسب، بل ليفرض سيطرته عليها.[22]

وقبل مغادرتنا بيكون، نشير إلى أن هذا الأخير لم يكن يطمع في أكثر من أُمنية واحدة، وهي أن يصبح الإنسان سيدا للطبيعة، ويستشف ذلك من قوله: « إن الناس من حيث مطامعهم ثلاثة رجال: رجل يطمع في أن يبسط سلطانه على أمته، وهو أوضع الثلاثة جميعا، وآخر يطمع في أن ينشر نفوذ بلاده على أمة أخرى، وهو أسمى من الأول وأنبَل وثالث يطمع في أن يجعل الجنس البشري سيِّد الكون، وهو أشرف من سابقيْه وأرفع ».[23]

2– ديكارت René Descartes

رونيه ديكارت (1596-1650م) عالم فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي، ينحدر من عائلة غنية وميسورة، له الفضل الأكبر في تأسيس الحداثة والعقلانية الغربية، وفي وضع دستور الفكر الحديث خلال القرن السابع عشر، حتى استحق أن يدعى «أبا الفلسفة الحديثة». وعلى الرغم من أن ديكارت هو من أكثر المفكرين إشكالية، إلا أن مكانته العلمية والفلسفية بالنسبة للحضارة الغربية، لا تحتاج إلى شرح طويل، فهو أحد أهم علماء الغرب قاطبة، استنبط الهندسة التحليلية، وكان من أوائل واضعي الفيزياء الرياضية، فقد أضفى على الكون كله تصوراً رياضياً، ناهيك عن كونه رائدا للعقلانية في الفلسفة الغربية الحديثة.

أن نقطة الارتكاز في فلسفة ديكارت هي الشك، فالشك بكل شيء هو الخطوة الضرورية الأولى، لكنس جميع الافتراضات والقناعات المشوّشة لمعرفة الانسان، والاكتفاء فقط بالحقائق التي نستطيع أن نختبرها بأنفسنا بوضوح ومباشرة، بوصفها غير قابلة للشك. لقد استنتج ديكارت أن معطى واحدا فقط غير خاضع للشك؛ وهو حقيقة أنه يشك، أو «الأنا» الواعي للشك، الفاعل لفعل التفكير. وهكذا يكون الكوجيتو الديكارتي الشهير: «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، قد توّج عقل الإنسان شاهدا، بوصفه المرجعية العليا في أمور المعرفة كلها، والقاضي بتأصيل الأنموذج الارشادي الأول «الباراديغم» لكل معرفة أخرى.

ويكشف الكوجيتو الديكارتي أيضا، عن ترتيب وتقسيم للعالم إلى جوهرين؛ الأول وهو الإنسان العقلاني الذي يعرف أن وعيه هو الشيء الوحيد المؤكد، وهو الذي يحتل المركز. وفي المقابل يأتي العالم الخارجي والأشياء المادية، التي هي أقل يقينا على الصعيد المعرفي، ولا يمكن إدراكهما إلا كأشياء. ومن هنا تتبلور إحدى مهمات العلم، وهي تحليل الكون المادي تحليلا ميكانيكيا شاملا، وتوظيفه على نحو فاعل، يجعل الإنسان

«سيد الطبيعة ومالكها». ويدعو ديكارت لقيام فلسفة عملية، تهب الإنسان فهما مباشرا لقوى الطبيعة، بما يوفر إمكانية جعلها تخدم أغراضه.[24]

رابعا: المركزية البشرية في الفلسفة الغربية، نحو أخلقة عالم الطبيعة:

وبالعودة مرة أخرى إلى بواكير الفكر الإنساني، وبخاصة الغربي منه، تبرز لنا بكل وضوح أطروحة تفوق الإنسان، باعتباره أسمى وأنبل الموجودات على وجه الأرض، فعلى مر تاريخ هذا الفكر، دعمت الفلسفة والدين والعلم هذا التصور، أو ما بات يعرف بفكرة «المركزية البشرية» Anthropocentrism. وقد سيطر هذا المبدأ على الأذهان منذ قديم الأزمان، مشكلا نوعا من البراديغم الذي يعلي من قيمة الإنسان أو البشر على وجه العموم، دونا عن سائر الموجودات الأخرى، التي تأخذ قيما ثانوية أو هامشية. فما هي حقيقة ودلالات فكرة المركزية البشرية؟ ماهي انعكاساتها الأخلاقية على البيئة وعلى المحيط الطبيعي؟

1- تكريس المركزية البشرية في الفكر الغربي:

إن فكرة «مركزية الإنسان» أو ما بات يطلق عليه أيضاً بـ «المركزية البشرية»، هي وجهة نظر فلسفية تجادل ــ بصورة صريحة أو ضمنية ــ بأن البشر هم الكيانات المركزية الأفضل أو بالأحرى الأكثر أهمية في الكون،[25] وهو اعتقاد أساسي متأصل في العديد من الأديان والفلسفات الغربية. والأكثر من ذلك، أن مصطلح «المركزية البشرية »مفهوم ينطوي في أبرز دلالاته على أن البشر منفصلين عن الطبيعة ومتفوقين عليها، كما ينطوي في الوقت ذاته على الحط من قيمة الطبيعة، والتقليل من شأنها، مقارنة بما اكتسبه الإنسان من تقديس وتبجيل، في كافة مراحل وعيه لذاته واكتسابه لهويته على مر العصور.

وحسب موسوعة لالاند André Lalande الفلسفية ، فقد أوردت بأن المذهب المركزي الإنسانوي هو الذي يجعل الإنسان مركز العالم، كما يعتبره خير الإنسانيّة وهو

بمنزلة العلّة الأخيرة لباقي الأشياء.[26] أما بالنسبة للقاموس الفرنسي لاروس Larousse فإن مصطلح المركزية البشرية Anthropocentrisme يشير إلى «كل نظام أو الموقف الذي يضع الإنسان في مركز الكون، والذي يعتبر أن كل شيء يتعلق به ».[27]

والواقع أن مصطلح «المركزية»، له دلالات وامتدادات عديدة، ثقافية وانثروبولوجية وجغرافية ودينية وسياسية وغيرها، فقد تطور مفهوم التمركز بفعل ارتحاله عبر ميادين ومجالات كثيرة، كالإنسان والدين والجغرافيا وغيرها. ففي جميع هذه الحالات، يكون الهدف هو الجذب والاستقطاب نحو المجال المرفق بمصطلح المركزية، مثل المركزية الغربية أو المركزية الإنسانية أو البشرية وغيرها.

وتجدر الإشارة في هذا السياق، إلى أن فكرة التمركزات عموما، وبخاصة «المركزية البشرية» تحيلنا بشكل أو بآخر إلى ما يُعرف بالثنائيات الضدية، التي أصبح استعمالها أمرا شائعا ومألوفا، فهي تضع في حقيقة الأمر الكيانات المتقاربة موضع الفصل والتمييز، كوضع الإنسان مقابل الطبيعة، كما هو الشأن بالنسبة لـ «الذات والموضوع"، «الفكر والواقع»، «الأنا والأخر»، «الروح والمادة»، «الشرق والغرب»، وصولاً إلى التمييز بين البشر أنفسهم، كالتمييز بين «السادة والعبيد» وبين «الأعراق الحاكمة والمحكومة» التي عمل الاستشراق والاستعمار الغربي على توطينها بقوة، منذ بدايات القرن التاسع عشر.

لقد اكتسب مفهوم «المركزية البشرية» شيئا فشيئا، ما اصطلح عليه توماس كوهنThomas Samuel Kuhn بالبراديغم، أو ما سماه ميشال فوكو Michel Foucault بالابستيمي أو البنية عند جون بياجي Jean Piaget وغيرها من التسميات التي تمنح مقولة أو نظرية دورا خفيا لكنه سلطوياً. فالمركزية البشرية هي هذا النموذج، الذي يمنح وجود الإنسان وعالم البشر قيمة جوهرية، أزاحت بصورة لا واعية الكيانات الأخرى جامدة كانت أم حية ــ بما في ذلك الحيوانات والنباتات وكل الموارد الطبيعية ـــ إلى مراتب هامشية. ومن هذا المنطلق فإن «المركزية البشرية» تعتمد في

مفهومها وفي ديناميكية عملها، على جزء ضئيل من العالم، هو العالم البشري لا العالم كله بصفة عامة.[28]

وعلى ذكر البراديغم Paradigme في علاقته بموضوع «المركزية البشرية»، فهو ــ البراديغم ــ في غالب الأحيان يكون حسب إدغار موران Edgar Morin مسؤولا عن التوجهات والاختيارات، وهو الذي يحدد المفاهيم والتصورات الأساسية، وكذا العمليات المنطقية اللازمة لذلك. وهو فوق كل ذلك، ينظم البراديغم ويراقب تلك العمليات، وما ينجر عنها من نظريات وخطابات، لأن معرفة الأفراد ومعتقداتهم وكذا استجاباتهم، ينبغي أن تظل منسجمة مع البراديغم المثبت ثقافياً.[29]

وخلاصة القول، أن تلك القوالب الفكرية والمواقف الفلسفية التقليدية والحديثة، بما في ذلك تطورات العلم والتكنولوحيا، قد أفضت شيئا فشيئا إلى نتائج يمكن اعتبارها كارثية، لا على البيئة والموارد الطبيعية وعلى النظام الإيكولوجي فحسب، بل أدت إلى تلويث البيئة الثقافية والفكرية وحتى السياسية. لقد أدى ذلك في نهاية المطاف، إلى نصب الحواجز وإقامة التمايزات بين الثقافات والأديان والسياسات، وبين البشر أنفسهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

2– أخلقة عالم الطبيعة:

إن أكثر التوصيفات دلالة على القرن العشرين، هو أنه قرن الأزمات الكبرى؛ كما أن هناك شبه إجماع بين الفلاسفة والمفكرين، على أن الفكر والفعل الإنساني وحده هو سبب كل هذه الأزمات. فلقد فرض السلوك الإنساني المتسم بالعنف واللاوعي، في تعامله مع عالم الطبيعة بكل مكوناتها، بالعديد من المشكلات والتحديات، التي أصبحت تهدد جوهر الوجود بشكل عام، والوجود الإنساني بشكل خاص؛ فلقد أدت أفعالُه غير الرشيدة، المقترنة دائماً بالسيطرة على الطبيعة وتسخيرها لتحقيق مصلحته، إلى حدوث كوارث طبيعية وإيكولوجية لا تحصى.

لقد رأينا كيف وجه الفلاسفة والمفكرون عظيم عنايتهم إلى دراسة الكون بمختلف ألوانه ومكوناته، بحثا في مسألة خلقه وبدايته، والمادة التي صدر عنها. فقد قضى هؤلاء ردحا من الزمن، يقلبون الأمر على كافة وجوهه، مستعينين في ذلك بكل ضروب الوعي، كالأساطير والوحي والشعر والفلسفة ثم العلوم المختلفة، كعلم الفلك والرياضيات والفيزياء وغيرها. فقد ظلت الأولوية للأنشطة العقلية البشرية والتجريبية، كمصادر لبناء العلم والوصول إلى الحقيقة، حتى صار البحث في مسائل الطبيعة، تابعًا لمنطق الإنسان في النظر والفهم، ومرسخًا لمركزية إنسانية أو بالأحرى بشرية منقطعة النظير، بيد أن « الصعوبات التي ستقف حائلة دون انتصار أفكار العقل والطبيعة لم تأت من مقاومة الرؤيا المتعالية بقدر ما أتت من تأثيرات ونتائج فعل العقلانية ذاتها. ستنتاب العقلانية والمذهب الطبيعي أزمات تحول دون انتصارهما ».[30]

إن الآثار الكارثية المترتبة عن تلك النزعة البشرية الاستعلائية المتمركزة حول ذاتها، أدت إلى مراجعات فلسفية لمقومات الحداثة الغربية، ولأسئلتها الأنوارية وتصوراتها المعرفية تجاه البيئة. ويستند رواد ودعاة فلسفة الأخلاق البيئية إلى قناعة أساسية، مفادها أن للطبيعة قيمة أصلية وذاتية، تستلزم البحث في الواجبات الأخلاقية البشرية حيال المنظومة البيئية برمتها، التي أعادت طرح سؤال الأخلاق ومساءلة وضعية الإنسان في الوجود، وفق منظور ما بعد حداثي. لأنه كما يقول هانس يوناس Hans Jonas : « لا توجد أيّ أخلاق سابقة أخذت بعين الاعتبار الوضع العالمي للحياة البشرية والمستقبل البعيد لوجود النوع ذاته ».[31]

ومن هذا المنطلق، فإن منظورنا للمعرفة وللقيم وحتى دعواتنا للأخلاق البيئية، ستظل معتلة إذا ما بقيت تحت سطوة ما يسمى «بالمركزية البشرية». فالحركات البيئية نفسها أضحت مقتنعة اليوم بأن حماية الطبيعة وإقرار حقوقها، يمر بالضرورة عبر تقويض التمركز الإنساني، حتى يصبح البشر مساوياً للأنهار والصخور والحيوان أو ما يطلق عليه لوك

فيري Luc Ferry بفكرة «الإيكولوجيا الديمقراطية»، المعتدلة والمتسامحة مع الإنسان، والمنبثقة من مؤسسات دولة المواطنة وحقوق الإنسان.[32]

خاتمة:

في خاتمة هذا البحث حول الرؤى الغربية للكون ومنزلة الإنسان، وتأثير ذلك على قيم الحداثة وممارسات الإنسان تجاه الطبيعة والنظام الإيكولوجي، فإن أهم الاستنتاجات التي نستخلصها في هذه الخاتمة هي كما يلي:

إن رؤية الإنسان للعالم وتفكره في الوجود مسألة حتمية، تنبثق من طبيعة العلاقة الأنطولوجية بين الكائن والوجود، فقد برز السؤال الأنطولوجي في مقدمة الأسئلة التي شغلت الإنسان منذ بدء الخليقة. ومن الطبيعي أيضا أن تتعدد رؤى الإنسان وتتلون تفسيراته وتأويلاته، بتعدد الأسانيد المعرفية والمنهجية التي يتيحها له الزمان والمكان وطبيعة المرحلة، كما أوضح لنا أوجست كونت ذلك في قانون الأحوال الثلاث.

وإذا كانت الرؤية التي سعينا لملاحقتها في هذا البحث هي الرؤية الفلسفية، فقد كانت لحظاتها الأولى يونانية. لقد أفضت مراجعتنا لنصوصها وخطاباتها الرئيسية، التي كتبت في مراحل متلاحقة من تاريخ هذه الفلسفة، والتي كتبت بصيغ معرفية ومنهجية مختلفة، كانت تعبيرا عن ذلك الهاجس الأنطولوجي، المتمثل في البحث عن أصل الوجود، وعن مكانة الإنسان في هذا الوجود.

لقد استمر هذا الانشغال مع سائر الفلسفات اللاحقة ـــ وبأكثر حدة ربما ـــ وبخاصة مع تدشين عصر الحداثة. فقد أوضحنا الأثر الذي خلفه كلا من فرنسيس بيكون ورينية ديكارت، في كل مسارات الفلسفة الأوروبية الحديثة، فمنذ بيكون وديكارت، اكتسبت الرؤية الفلسفية للكون مظهرا علميا وعمليا، تهدف بالأساس إلى تعميق سيطرة الإنسان على الكون، وإخضاع الطبيعة وإرغامها على تلبية رغبات لرغبات البشر.

ويفهم من كل ذلك، أنه ومنذ لحظة طاليس وبواكير الفكر الغربي، برزت بكل وضوح أطروحة تفوق الإنسان، باعتباره أسمى الموجودات على وجه الأرض، فعلى مر تاريخ هذا الفكر، دعمت الفلسفة والدين والعلم هذا التصور، أو ما بات يعرف بفكرة «المركزية البشرية» Anthropocentrism. مشكلا بذلك نوعا من البراديغم، الذي سيطر على الأذهان. فقد عمل في كل مرة، على دفع البشر على وجه العموم نحو مركز الاهتمام محيلا سائر الموجودات الأخرى، نحو الصمت والإهمال.

وخلاصة ما سعينا إلى برهنته، أن تلك القوالب الفكرية والمواقف الفلسفية التقليدية والحديثة، المدعومة بمنجزات العلم والتكنولوحيا، قد أفضت شيئا فشيئا إلى نتائج يمكن اعتبارها كارثية، لا على البيئة والموارد الطبيعية وعلى النظام الإيكولوجي فحسب، بل على البيئة الثقافية والفكرية وحتى السياسية. لقد أدى ذلك في نهاية المطاف، إلى نصب الحواجز وإقامة التمايزات بين الثقافات والأديان والسياسات، وبين البشر أنفسهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

إن الحركات البيئية نفسها أضحت مقتنعة اليوم، بأن حماية الطبيعة وإقرار حقوقها، يمر بالضرورة عبر تقويض التمركز الإنساني، وإنهاء الوصاية البشرية على الكون، وعصرنة القيم الأخلاقية بإقرار تشريعات جديدة، تضع البشر والأنهار والصخور وسائر الكائنات على قدم المساواة. هذا ما يطلق عليه لوك فيري بفكرة «الإيكولوجيا الديمقراطية»، المعتدلة والمتسامحة مع الإنسان، والمنبثقة من مؤسسات دولة المواطنة وحقوق الإنسان.

الهوامش:

1- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، مكتبة ذوي القربى، قم، ط1، 1983، ج2، ص: 558.

2- عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط3، 2000، ص: 124.

3- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد ةخليل، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط2، 2001، ج2، ص: 911.

4- الجابري محمد عابد، مدخل إلى فلسفة العلوم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص: 20.

5- مارتن هيدغر، الكينونة والزمان، تر: فتحي المسكيني، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2012، ص: 138.

6- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع- القاهرة، 1984، ص: 26-27.

7- هانز جورج غادامير، بداية الفلسفة، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، دار الكتاب الجديد المتحدة- بيروت، ط1، 2002، ص: 5.

8- زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، 2018. ص: 21.

9- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، 2014، ص: 25.

10- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، المرجع نفسه، ص: 30.

11- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، المرجع نفسه، ص: 33- 34.

12- محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي: الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون، دار الوفاء للطباعة والنشر الإسكندرية – مصر، ط2، 2014، ص: 54.

13- مصطفى سامي النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية: السوفسطائيون-سقراط -أفلاطون، المرجع نفسه، ص: 17-18.

14- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، المرجع نفسه، ص: 101

15- محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي: الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون، م.ن، ص: 97.

16- أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية: تاريخها ومشكلاتها، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص: 134.

17- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، المرجع نفسه، ص: 198.

18- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، المرجع نفسه، ص: 214.

19- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، المرجع نفسه، ص: 180.

20- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، المرجع نفسه، ص: 239.

21 -ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي، نفسه، ص: 326.

22- ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي، نفسه، ص: 326.

23- زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، 2020، ص: 55.

24- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، المرجع نفسه، ص: 334-335.

25- مركزية الأنسان/https://ar.wikipedia.org/wiki

26- موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت وباريس، الطبعة الثانية، 2001، ج 1، ص: 74.

27- http:/ fr/dictionnaires/francais/anthropocentrisme/3885 (consultée le 25 juillet 2023)

28- فؤاد مخوخ، من نقد العقل إلى هيرمينوطيقا الرموز: بحث في فلسفة الثقافة عند إرنست كاسيرر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت (لبنان)، الطبعة الأولى، مارس 201،.ص: 191.

29- Edgar Morin : Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur, Seuil,UNESCO, Paris, 1999, p9.

30- جاكلين روس، مغامرة الفكر الأوروبي: قصة الأفكار الغربية، ترجمة: أمل ديبو، أبوظبي الثقافة والتراث (كلمة)، ط1، 2011، ص: 26.

31- Hans Jonas, Le Principe responsabilité. Une éthique pour la civilisation technologique, coll: «Champs», Flammarion, 1995. P: 33.

32- Luc Ferry, Le nouvel ordre écologique; l'arbre, l'animal et l'homme, Edition Grasset et Fasquelle, 1992, p: 7.